

(٦) أسرار أزمة الأمة الإسلامية 2

(الاستبداد السياسي)

د. راغب السرجاني:

أتوقع أن أسرار الأزمة كثيرة ليست فقط قضية العلم وغيابه عن واقع المسلمين وقضية الاستعمار الخارجي، ما هي الأسباب الأخرى التي هي سبب في المشكلة حتى نقوم بتصليحه؟

د. صلاح سلطان:

قضية الاستبداد السياسي هي معضلة من معضلات العالم العربي والاسلامي.

فأي مجتمع به عنصر القهر لكرامة الإنسان يكون القهر في جانب الإبداع، فتجد أيام الاستعمار الانجليزي كانت هناك بعض مساحات الحرية فوُجِدَ أدباء وشعراء، لكن هذه الاقلام النادرة المتميزة عندما تظهر الآن تموت، وصارت لا توجد إلا (الأقلام المأجورة)، كالصحف التي تظهر بالآلاف في العالم العربي والاسلامي التي قال عنها أحدهم (تُسَبِّح بحمد الطغاة وتُسَبِّح بحمد الشهوات)، وهذه كارثة كبرى أصابت في مقتل هؤلاء النوابغ في الامة الاسلامية.

أصبح لا يوجد اهتمام بهؤلاء النوابغ في علوم شتى كالشريعة والفلك وغيرها،

وعلى سبيل المثال في وقتنا هذا تجد أن لاعب كرة القدم يكون راتبه أكبر من أي استاذ جامعي بل أكبر من مجموع الأساتذة في جامعة ما، فكل الاساتذة النوابغ الذين يَتعبون في العلم منذ الطفولة إلى شيخوختهم رواتب هؤلاء جميعا لا تساوي واحدا يضرب الكرة برجله، أو فنانا يقف ليقول كلمتين لا معنى لهما أو غيرهما، فهذا وضع مزري.

هناك من يربد أن يقرأ كتابًا ليتعلم ولا يجد ثمنه ومن يربد أن يذهب لمكتبة ما فلا يجدها وهناك من يربد أن يجد تكريمًا وتشجيعًا ولكن لا يجده، فالمناخ التعليمي فَسَدَ كجزء من فساد النظام السياسي.

لان النظام السياسي المتميز أول ما يسعى إليه هو الثورة على التعليم والتربية، لأن هذه تشع على كل جوانب البلد، لكن سنجد أن الاستبداد السياسي في العالم العربي والاسلامي أصاب العلم وأصاب العلماء في مقتل، والاستبداد السياسي لم يكفي بإنشاء فساد حديثًا وإنما أهال التراب على ما قدمه أسلافنا من دعم قوي للعلم وهو الوقف.



أسلافنا تركوا وقفًا هائلًا جدا لدعم العلماء وفي تخصصات عدة، فكان لدينا وقف في كل المعارف الشرعية والكونية، ففي مصر مثلا تم الاستلاء على أوقاف المساجد والكنائس في أوائل الستينات، فأما الكنائس استطاعوا أن يرفعوا أصواتهم عاليًا في العالم فرُدَت لهم أوقافهم، ولم ترد أوقاف المساجد إلى اليوم.

فأصبح أرباب العلم عالة على النظام في الدولة، وكل هذا ساهم في تراجع كبير جدا للحركة العلمية.

د. راغب:

أريد أن أربط بين هذا وبين قضية الاستبداد السياسي، لماذا الاستبداد السياسي يحب الجهل ولماذا يكره العلم؟

ذلك لأن الجاهل من السهل ان تقوده و تحركه فكلما ازداد جهلا كلما كان سلِسًا في قيادته، ولعل المثال الذي ضربه ربنا عزَّ وجلَّ في فرعون وهو كبير الطغاة: {قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: ٣٩]، وكأن فرعون يقول لا أحد يفكر أنا فقط الذي أفكر وأنا أرى ما فيه الخير والصلاح لهذا البلد ولهذا الشعب، وبالتالي فالشعب لا يتحركون ولا يفكرون ولا يُصلحون وإنما هو وحده يرى الذي فيه خير.

والتاريخ يحمل مثل هذه الصورة آلاف المرات، ففي كل مرة ترى دكتاتورًا يحكم العالم أو دولة ما تجده حريصًا كل الحرص على قضية الجهل لدى الناس!

ولعل الحرب الضروس التي كانت بين الكنيسة في القرون الوسطى في أوربا وبين الشعوب كانت من جراء هذه القضية، الشعوب في القرون الوسطى عندما رأت أمة الإسلام في الأندلس وصقلية تتعلم وتخترع وتعيش حياة سعيدة بهذا الإنجاز فأصبحت تحرص على العلم وتبحث عنه، لكن الكنيسة التقطت هذه القضية ورأت أن هؤلاء لو تعلموا سيخرجون من تحت سلطان الكنيسة فكانت تسجن العلماء وتحرق كتيم وتفعل بهم ما لا يُتَخيل لأنهم بدأوا يتجهون إلى العلم.

حتى أن لدي إحصائية ذُكِر فيها أنه من سنة ١٤٨١ إلى سنة ١٤٩٨ حُكِمَ فيها على أكثر من ٩٠٠٠٠ عالم في أوربا، وعلماء ليس في علوم اللاهوت أو علوم الدين فقط بل في كل فروع العلم من الجغرافيا أو الفيزياء وغيرهم، برونو الذي تكلم عن كروية الأرض أُحرِقَ في ميدان روما وأمام الناس جميعا.

و كل هذا الاستبداد لأن الذي يُفكر يَصل، والذي يَعلم يُغير ويُصلح ويُطور والمستبدون لا يريدون هذا التطوير.



والأمة الإسلامية عانت من استبداد ظاهر ولا زالت تعاني من الاستبداد في شتى المجالات ولعل الاستبداد هذا من الأسباب الرئيسة التى أدت إلى ما نحن عليه الآن بالإضافة إلى غياب العلم.

لكن أنا أقول وكما في الحديث، الذي هو ضعيف ولكن معناه صحيح: "كما تَكونوا يُولَّى عليكُم"، فالأمة الضعيفة الفاسقة يختار لها ربنا عز وجل حاكما مستبدا دكتورا خارجا عن كل الأعراف وكل الأصول.

وأستنبط ذلك من قول ربنا عز وجل: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ} [الزخرف:٤٥]، فهم كانوا قوما فاسقين، ولم يقل أنه كان حاكمًا فاسقًا، فخرج لهم هذا الفاسق الذي حكمهم وطغى وتجبر عليهم، فأين كنتم كشعب وعلماء وطلاب علم وتجار لما ظلمكم وأخذ حقوقكم؟!

وبالرغم من أن هناك شعوبا في العالم انتفضت على حكامها مثل ما حدث في رومانيا وغيرها ، فلماذا رضيت أمة الإسلام على مدار عدة عقود بهذا الوضع؟، وسكوتها لعله من الأسباب الكبرى لهذه المشكلة التي نعيشها الآن.

د. صلاح:

تعلم أن طلاب رومانيا بالرغم من أن قتل منهم ٧٠ شخص إلا أنهم استمروا في الانتفاضة ضد ظلم تشاوتشيسكو حتى استطاعوا أن ينهوا هذا الحكم القاسي، الذي لم يكن أحد يتصور أن ينتهي هذه السرعة وهذه الطريقة وحُكِمَ وقتل تشاوتشيسكو على يد الطلاب.

وفي أي نظام استبدادي في عالمنا العربي والاسلامي، أول ما يُفكر فيه ويفعله أن يبعد الطلاب عن بعضهم، فتجد أن مفهوم الجامعة لم يعد كما كان وتكون جميع الكليات في مكان واحد جامع لهم، بل أنهم يباعدون بين مباني الكليات كلية الطب في مكان وكلية الهندسة في مكان أبعد، على مبدأ فَرَق تَسُد.

وهذا الأمر بُعد أمني وسياسي حتى لا يوجد التقاء بين الطلاب، حتى اصبح فكر الطالب محدود في كتاب يمتحن فيه فقط ولا يتعلم ليصلح البلد والأمة ، فالاستبداد السياسي جعل الانسان أقرب ما يكون إلى الانسان الحقير الصغير الذي لا يستطيع إلا أن ينظر من عين محدودة جدًا.



د. راغب:

بالتالي هناك مشكلة في الحكومات ومشكلة أخرى في الشعوب، لكن المشكلة الأكثر خطورة هي التي في الشعوب.

ذلك لأن الشعوب لو صَلُحت لأرسل الله لها عدلًا وصلاحًا، لكن الأمة الآن تَرقُب ظهور مثل صلاح الدين وصلاح الدين لا يخرج إلا في قوم أُعِدّوا بالدين، فصلاح الدين ظهر من تربية نور الدين محمود الذي تربى على يد عماد الدين زنكي الذي بدوره تربى على يد العلماء من أبناء الأمة الاسلامية.

إذًا البداية كانت في العلماء ، ولئن لم يَصِلُح الشعب لن يَصِلُح الحاكم، وإن ضعفت الأمة تمكَّن منها عدوها.

عندما ننظر إلى الهود ونجد أن عددهم كل يهود العالم هم ١٢ مليون فقط على مستوى العالم كله لكن تجد أنهم يسيطرون على فلسطين التي هي في عُقر دار المسلمين، لكن كيف استطاع هؤلاء أن يسيطروا على هذه الاوضاع؟

أنا أقول ليس هذا أبدًا من قوة الهود، مع أن لهم القوة ولهم السلاح وجواسيس وعلاقات دولية، لكن إنما نؤتى من ضعفنا ومن عندنا وهذه هي المشكلة.

وكما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إنكم لا تُنصرون على عدوِّكم بقوة العدة والعتاد، إنما تنصرون عليه بطاعتكم لربكم ومعصيتهم له، فإن تساوبتم في المعصية، كانت لهم الغلبة عليكم بقوة العدة والعتاد".

بل إن الأعداد الكبيرة من المسلمين تُهزم بالأعداد القليلة جدا من الكفار والهود إنّ اعتقدوا بأن النصر من عند أنفسهم وليس من عند الله عز وجل وقصة حنين ليست منا ببعيدة، وكما قال الله تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ لِإِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا} [النوبة: ٢٥]، وكان قائد الجيش هو الرسول عليه الصلاة والسلام والجيش كله كان من الصحابة ومع ذلك الجيش اهتز اهتزاز كبير جدا، ولكن عاد إلهم النصر عندما علموا أن النصر من عند الله عز وجل.

إذا المشكلة بداخل المسلمين، وأنا لا أربد لمن يتابعنا الآن أن يُحبط عندما يرى المتسلطون علينا، وأن عدونا متسلط علينا من الخارج وأبناء جلدتنا متسلطون علينا من الداخل، فيتصور أنه ليس هناك أمل!

الأمل يجب أن لا يموت في قلوب المسلمين.



د. صلاح:

الأمل جزء من تكويننا، وصحيح قلبي يتحرق على أمتي وأعيش آلام أمتي بكل ذرة من مشاعري، وربما عندما أقرأ دراسات متعمقة وأتابع الأحداث أتأثر وأعيش الألم لكن بفضل الله جينات الأمل عندي تَربوا دائما على جينات الألم، ولم أركن يوما إلى اليأس والاحباط، بل أنا أرى أن الأمل يجب أن يسبق العمل وانه مهما كان الألم.

في قضية الاستبداد السياسي التي وصلت لقمتها في الحضارة الفرعونية، هناك خمس مظاهر للفرعنة كانت تدل على هذا الاستبداد، لكن هناك أيضا ٥ جوانب من الارادة الربانية التي تحققت.

والبداية كانت من عند الشعب، الله تعالى يقول: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيي نِسَاءَهُمْ : إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص:٤]

ففي هذه الآية تجد خمس مظاهر للفساد، وتجد بعدها الإرادة الربانية، فيقول الله تعالى: {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِثْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ} [القصص:٥-٦].

وبرغم كل أنواع الفساد إلا أن الله تعالى قرر ٥ جوانب قررها سبحانه، وفي الوقت الذي كان فرعون يُذَبِّح الرجال أخرج الله له أربع نساء، الأولى: {وَأَوْحَيْنًا إِلَىٰ أُمّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ} [القصص:٧]

الثانية: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ} [القصص:١١].

الثالثة: {وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لِلاَ تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [القصص:٩]

الرابعة: {قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرُهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص:٢٦]

فلو ذَبَّحوا الرجال كلهم سيُخرج الله لهم حركة نسائية لتقوم بدور إعادة التمكين الإسلامي في الأرض.

والأمر الآخر: إذا تكلمنا عن الاستعباد الخارجي، فهو ليس استعمار ولكنه استعباد واستخراب، الله تعالى يقول: {يُرِيدُونَ أَن يُطُفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْتَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة:٣٢]

{يُرِيدُونَ} بالفعل المضارع، {أَن يُطُفِئُوا} أي الآن، { نُورَ اللَّهِ} أي الإسلام ككل، {بِأَفْوَاهِهِمْ } ليدل على تفاهة ما يفعلون، {ويأبى الله} فالله هو الذي يرفض أي أن هناك إرادة ربانية،

وقال تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [الصف:٨]

فلو جمعنا بين الآيتين نفهم أن هناك حدث حالي للإطفاء وهناك خطة في المستقبل لإطفاء نور الله عزوجل، ثم يقول: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [الصف:٩]



د. راغب:

إذا الإنسان تتبع هذا المعنى في القرآن الكريم سيصله هذا الرسوخ في اليقين والاطمئنان بأن الله سينصر هذا الدين.

ودائما أقول أن القضية ليست قتالًا في حقيقتها بين المؤمنين وبين الكفار، ولكنها قتال بين رب العالمين وبين من مَرَقَ عن دينه من عباده، لهذا يقول عزوجل: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ} [الأنفال: ٣٠]، فهنا نسبه الله له ولم ينسبه إلى المؤمنين، مع أن المؤمنين يخططون ويدبرون وهم من يمسكون بالسيف، لكن الله يقول: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَهَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ} [الأنفال:١٧]، ويقول: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا . وَأَكِيدُ كَيْدًا} [الطارق:١٥- ١٦]، ويقول: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ} [الأنفال:١٠]، فدائما يُنسب إليه سبحانه وتعالى.

دائما أتذكر هذا الموقف المؤثر لسيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه في موقعة اليرموك، وكان عدد الروم أكثر من مائتي ألف،

وهو واقف ومعه حوالي ٣٩ ألف مسلم فقط،

فقال أحد الجنود الواقفين بجواره وقد دخل في قلبه اليأس: يا الله ما أكثر الرومان!

لكن خالد بن الوليد رضي الله عنه رجل واعي ويفهم دين ربه عز وجل ويفهم من أين يأتي النصر ويعلم أن النصر ليس من ذهنه ولا عبقريته بل هو من عند الله،

فقال: (اصمت يا رجل، بل قُل ما أقل الرومان وما أكثر المسلمين، إنما ينصر المسلمون بنصر الله لهم ويخذل المسلمون بخذلان الله لهم)

فالمسلم يُخذل بخذلان الله له إذا ابتعدت عن شرعه، وكرامة المسلم لا تكون بعرقه ولا بكونه مسلم وفقط، بل كرامته تكون بتطبيقه لكتاب ربه واتباعه لشرع رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم قال خالد: والله لوددت أن الأشقر براء من توجعه وأنهم أضعفوا في العدد، والأشقر هو حصانه وكان مربضًا.

هذا المعنى وهذا الارتباط بالله عز وجل، وأن الله عزَّ وجلَّ هو المُعين والناصر وأنه هو الذي سيخرجنا من أزمتنا إذا ارتبطنا به وتوكلنا عليه والتجأنا إليه، إذا ترسخ في وجداننا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتسرب اليأس إلى قلوبنا، يقول الله تعالى: {قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةٍ رَبِهِ إِلَّا الضَّالُونَ} [الحجر: ٥٦]، وقال: {إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: ٨٧].

لا تصح هذه الصفة مع مؤمن مطلقًا.



وأننا مهما عددنا من جوانب الأزمة فهذا التعداد ليس للشماتة من حال المسلمين ولا للبكاء على لبن مسكوب ولا لليأس والاحباط، ولكن لتشخيص هذا المرض حتى نخرج بحل لأزمة، ومهما ذكرنا من هذه الأمراض ومهما ذكرنا من هذه الآفات لا يمكن أبدا أن يتسلل اليأس إلى قلوبنا، إنما نذكره ونعلم أننا سنخرج من هذه الأزمة إلى انتصار، وسنخرج من هذا الضعف إلى قوة، ومن هذا الذل إلى عزة وهذا وعد ربنا عز وجل.

وبفضل الله هناك من الشواهد الكثيرة والتي تدل على أن هذه الامة مهما كانت ضعيفة لكنها بفضل الله تسير إلى الأعلى والأحسن، والأمة الإسلامية في صعود مستمر مع كل أنواع الفساد والاحتلال، حتى نصل إلى ما وعدنا به ربنا من عزة وكرامة وريادة.

